

رحلة جبلية رحلة صعبة لعدوى طوقان

ريحانه بشير*

السيرة الذاتية فن من فنون الأدب العربي الحديث لها خصائص ومميزات شكلية معينة وهو الفن الذي إزدهر وانتشر في العصر الحديث التي تعبر به العواطف والأحاسيس الإنسانية وتحمل رسالة إجتماعية وإنسانية للمجتمع البشري وتصور الحياة الإجتماعية بتصوير صادق. وإن وجدت في العصور الماضية اللهم إلا لم تكن سيرة ذاتية فنية وإنما كانت سيرة يراد بها درس حياة فرد من الأفراد دراسة دقيقة شاملة إنها في الحقيقة تجربة ذاتية لفرد من الأفراد وإذا بلغت غاية النضج والكمال وأصبحت في نفس صاحبها نوعا من القلق الفني فإنه لابد له من أن يكتبها ويقدمها إلى أبناء الإنسانية. هذه هي صورة السيرة الذاتية في هذه الأيام بعد أن أخذت شكلا فنيا كاملا لم يعرفه العرب القدماء.

لقد حاول بعض القدماء أن يكتبوا سير أنفسهم في صورة فنية وإن لم تصل محاولاتهم إلى ذروة الفن التي وصلت إليها كتب السيرة الذاتية في العصر الحديث، ومن أهم هذه المحاولات البداية كتاب "رد الأعتبار" لأسامة بن منقذ الذي أشبه بالتاريخ وقد مرجعا هاما من المراجع التاريخية عند التحقيق. ومن الكتب المذكورة كتاب "التعريف" لابن خلدون الذي يقص لنا فيه تجارب حياته

* باحثة الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

وما جرى له في ذلك العصر ويختم حديثه بذكر الأسباب التي دفعته إلى كتابة سيرته. وبعد مطالعة شاملة لهذا الكتاب يبدو لنا أن ابن خلدون يثبت في سيرته المذكورة الوقائع التي ذكرها في تاريخه المشهور "كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر". وقد حاول قبله أبو حامد الغرالي فكتب سيرته "المنقذ من الضلال" بطريقة يذكر فيه ما عاناه في قلبه من الإضطراب والقلق حتى استخلص الحق وكذلك يتحدث عن حياته الفكرية والأحوال التي مر بها ويشرح لنا خواطره ومشاعره ومعتقداته.

وفي العصر الحديث قد ساهمت في هذا الفن أدبيات عديدة مساهمة كبيرة ومنها سيرة الشاعرة الفلسطينية الراحلة فدوى طوقان "رحلة جبلية-رحلة صعبة" حكّت فيها قصة حياتها كإمرأة ودور أخيها الشاعر الراحل إبراهيم طوقان في تحريرها من قيود وأغلال المجتمع العربي الذي تتحكم فيه العادات والتقاليد، والحقيقة أنه من الصعب بنسبة المرأة أن تكتب سيرتها الذاتية وتكشف عن خبايا حياتها الشخصية. فتعبر سيرتها نمودجها لأدب الاعتراف عند المرأة العربية على أساس تفاعلها مع البيئة الثقافية والإجتماعية لفلسطين والأردن.

وسيرتها الذاتية في جزأين "رحلة جبلية رحلة صعبة" و "الرحلة الأصب" وبينما يمثل الأول منهما الفردي فأن الثاني منهما الإجتماعي، ففي الجزء الأول تظهر فدوى طوقان في محاولة وسعي لإثبات ذاتها على الساحة الأدبية واستعارة حريتها بسبب القيود الإجتماعية، أما في الجزء الثاني فقد أصبحت شخصية مهمة بالقضايا الوطنية¹.

يقول الكاتب رجاء النقاش " لا شك أنها أصدق وأرقى وأجمل مذكرات

كتبها أديبة عربية في هذا العصر وهي تستحق أن توضح إلى جانب أهم المذكرات المعروفة في الأدب العربي مثل "الأيام" لطله حسين و"زهرة العمر" لتوفيق الحكيم^٢.

في الحقيقة أن الفترة الزمنية التي عاشها هذه الشاعرة الكبيرة كانت من أخرج الفترات التي شدّها المجتمع العربي، فهي فترة تميزت بإضطرابات وأحداث ونكبات، هذا من الناحية السياسية. وأما من الناحية الإجتماعية فأنها نشأة في أسرة تميز ما بين الذكور والإناث ولا تترك للإناث سبيلا إلى طلب العلم أو المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية.

والعبارة التالية التي يبدأ بها الكتاب تلخص حرمان فدوى طوقان في حياتها حين قالت "لم أكن يوما براضية عن حياتي أو سعيدة بها، فشجرة حياتي لم تثمر إلا القليل وظلت روعي تتوق إلى انجازات أفضل وأفاق أرحب"^٣

جدير بالذكر هنا إن هذا الكتاب مليئ بالتجارب الحياتية شديدة الواقعية التي تعكس صورة المجتمع في عصر الكاتبة مشيرة إلى الحياة الإجتماعية والإقتصادية في ذلك العصر. ولم تقصر على ذاتها وإنما رسمت الشخصيات التي أثرت في حياتها أثرا مباشرا. إنها سيرة دقيقة وصادقة لحياة كاتبتها وأحوالها وثقافتها وما في أعماق هذه الكاتبة من احساسات وعواطف ومشاعر نحو المجتمع العربي. وقد ساهمت فدوى طوقان في كتابة فن السيرة الذاتية إذ تناولت قضاياها ومشاكلها التي كان تواجهها في حياتها الأدبية والأسرية والثقافية والإجتماعية. وتبحث عن قضايا المرأة في مذكراتها في ذلك العصر وتكشف لنا الطبيعة الإنسانية على حد كبير وهي أهم وسيلة من الوسائل الإصلاحية للمجتمع البشري.

خصصت فدوى طوقان في سيرتها جزءا غير قصير لأخيها إبراهيم طوقان فكان فارقة في حياتها وهو الذي افسح فضاء الشعر أمامها وبه بدأ سطر جديد في حياتها وهو المصلح النفسي الذي أنقذها من الانهيارات الداخلية كما تقول في كتابه "في تلك الفترة القاسية من سن مراهقتي كانت يد ابراهيم هي حبل السلامة الذي تدلى وانتشلي من بئر نفسي الموحشة المكتفة بالظلام"^٤.

ويقول الشاعر سميع القاسم الذي قدم لكتاب "إن باب السيرة الذاتية باب قائم بذاته في عمارة العمارة، بيد أنه باب غير مطروق كثيرا في لغتنا، ومنذ أيام الراحل العظيم طه حسين لم تبلغ سيرة ذاتية ما بلغته سيرة فدوى طوقان من جرأة في الطرح وإصالة في التعبير وإشراق في العبارة"^٥.

مذكرات فدوى طوقان تدل بنا إلى المعرفة عن بعض التقاليد السلبية الرائجة في ذلك المجتمع. وهكذا مؤلفها جعلت سيرتها وسيلة نقد المجتمع وإصلاحه، فهي لا تصور نفسها فقط بل تصور المجتمع كله بصراحة ودقة بحيث أصبحت هذه السيرة بحثا إجتماعيا كاملا. جدير بالذكر أن فدوى طوقان هي من أهم أديبات السيرة بالإضافة إلى رائدة الإصلاح الإجتماعية والحركة النسوية والفكرية العربية الحديثة.

"في بلادنا فلسطين يربط الناس السعد والنحس بالمولود الجديد أو بالفرس الجديدة أو بالزوجة الجديدة أة بالمنزل الجديد فيكون هذا الجديد مبعث تفاؤل أو تشاؤم بحسب ما يرافقه من أحداث سعيدة أو تعسية. ترى هل ربطت أُمي مقدمي إلى العائلة بالنحس الذي طرأ عليها، أعني إبعاد الإنكليز لأبي إلى مصر منفيًا عن عائلته ووطنه؟ لست أدري فقد يحدث هذا لاشعوريا"^٦.

ورغم كل الأعلام والقيود الإجتماعية والظروف الصعبة التي مرت بها ظلت فدوى طوقان تسعى جاهدة لإثبات ذاتها وتحقيق هويتها. "إن قوى الشر سواء كانت غيبية أم إجتماعية أم سياسية تقف دائما ضد الإنسان وتعمل على تحطيمه، ولكن الإنسان يقف أمام هذه القوى بكبرياء وعناد بالرغم من ضعفه"⁶. هذه السيرة تقدم عناصر الأدب معانيه إلى جانب صورة للمجتمع الذي تقاليدته تتعارض أحيانا حتى مع مفاهيم الأنثية وتعاليم الدين الحنيف وخاصة فيما يتعلق بتعليم المرأة وحقوقها المشروعة، وكل ذلك بأسلوب أدبي رفيع المستوى وقد انعكست الموهبة الشعرية لفدوى طوقان على نشرها في هذه المذكرات.

تكتب الكاتبة في هذه السيرة عن نفسها سردا للأحداث التي مر بها في حياتها بإشارة خاصة إلى الأحداث التي وقعت في مجتمعها التي عاشت فيها والتي أثرت في حياتها وتفكيرها أثرا بالغا، كما تحدثت عن التطور الذوق الأدبي والشعري عندها. إنها مصدرا قيما لأخذ المعلومات تتعلق بالحياة البشرية العامة في التاريخ مع تسجيل التفاصيل الأساسية والتفاعل والعواطف الإنسانية وغالبا ما يقدم كاتب السيرة الذاتية روح العصر من خلال سرد لحياته الخاصة. ومن أبرز خصائص هذه السيرة "تصوير الصراع" تصويرا تطلعتنا الكاتبة من خلالها على نفسها الداخلية، مظهرها عصر الأحداث الخارج لحياتها النفسية والفكرية والأدبية والشعورية كاشفا بذلك ما، تنعكس على مرآة ذاتها من وقائع الماضي وتجاربها.

وبخصوص الصراع بين القديم والجديد تقول فدوى "إن قصة الصراع بين القديم والحديث قصة أزلية لكي تتجدد الحياة لابد من هذا الصراع،

فالثبوت والاستقرار محال، وما دام كل شيء ينزع إلى التغير والصيرورة ويأبى الإكتفاء بذاته، وما دام هذا لنزوع إلى التغير هو قانون الحياة، فلا بد للشعراذن من أن يدركه هذا القانون فالجمود مستحيل، وحين نطالب الشاعر العربي الحديث بالاحتفاظ بصفة الثبوت لمبنى القصيدة فكأنما نطالبه بما هو ضد طبيعة الأشياء، بما هو ضد قانون الحركة والتطور"٧.

إن رحلة جبلية سيرة ذاتية كتبها فدوى طوقان عن نفسها لتعطينا صورة صادقة عن الحياة الذي قاوم صعوباتها ومشقاتها وما في أعماق هذه الكاتبة من احساسات وعواطف ومشاعر نحو المجتمع العربي.

الحواشي والمراجع

١. مجلة الدراسات العربية، العدد السابع، السنة السابعة، ديسمبر ٢٠٠٩، ص ٢٢
٢. غلاف الكتاب "رحلة جبلية رحلة صعبة" ١٩٨٥ م.
٣. رحلة جبلية رحلة صعبة ص ٩.
٤. مقدمة الكتاب ص ٣.
٥. رحلة جبلية ص ٣٥.
٦. المرجع السابق ص ١٥.
٧. المرجع السابق، ص ١٠.

* * *